

٠٤٣٥.٠٢.٠٠٠١

مقال للكاتب الإيطالي برونو كاجلي، روما

الشهيد وائل زعتر مقال للكاتب الإيطالي برونو كاجلي صادرة في روما عن

شاعر وكاتب مسرحي بالاضافة الى شهرته العالمية بمعرفته الموسيقية
الواسعة ومدير مؤسسة " روسيني " Rossini في " بيسارو " Pesaro والمدير
الفني لجمعية روما للفيلارمونيك واستاذ التاريخ المسرحي في جامعة " اورينيو "
وناقده موسيقي في احدى صحف روما الشهيرة ، كما انه يسهم في اعداد النشرات
الموسيقية في بلدان عديدة اخرى .

صورة وائل الذي عرفناه منذ سنوات طوال .

وحسب خبرتي الشخصية فقد وجدت بان وائل يتمتع بطبيعة تأملية اكثرت منها عملية . وهذا ما يفسر فشله في انجاز احد الاهداف التي كان يسعى اليه الا وهو الحصول من رابطة الكتاب الاوروبيين الغربيين على اعلان موقع ~~موقع~~ ^{موقع} يؤيدون فيه قضية الشعب الفلسطيني . لقد حدثني وائل الكثير عن هذا المشروع وكان من المفروض ان لا يواجه اية صعوبات في تحقيقه خاصة ولديه معارف كثيرة من بين الكتاب والادباء ، وان ما حال دون تحقيق مراده عدم اجادته للممارسات العملية بالاضافة الى غير ذلك من الاسباب . وعندما يجد الجدد ، فان مجتمعنا الذي قدم للعالم سمفونية بيتهوفن التاسعة لا يلزم نفسه بسهولة حتى ولو على مستوى اعلان عام . وان هذا الكتاب الذي يمكن اعتباره بمثابة انصاف لوائل قد تم انجازه بسبب ان وائل قد دفع حياته ثمنا له .

لقد عاش وائل حياته كرجل مثقف بين مجموعة بشرية تتمتع بالمثل بعادات وتقاليد وممارسات حضارية ايضا . وعندما قال وائل ان سمفونية بيتهوفن التاسعة لا تكفي وحدها لمنع اندلاع الحرب فقد كان يعني بذلك ناحيتين من نواحي الحياة في مجتمعنا ، عدم قدرة العالم المتحضر على تحقيق اي امر عظمي من ناحية والشك الذي يحيط بحضارة لا تسهم فيها القوى المسيطرة من ناحية اخرى .

وقبل اغتياله ، اثار وائل الشكوك حول الدور الذي اسندته مجتمعنا الى الادباء والمفكرين والثقافة بشكل عام ، وهو دور غير عادي من وجهة نظر احد الغرباء عن مجتمعنا هذا .

ان تعاملنا مع الادباء والمفكرين لهوا سلوب فريد من نوعه قل ان يماثله مثيل فسي المجتمعات الاخرى ، وحتى في المجتمعات التقليدية القديمة لا نجد اسم الكاتب محترما كما هو الحال عندنا .

ان الشعر والموسيقى يحتلان في العالم العربي مكانة مرموقة الا ان الغرب وحده له الفضل في تصنيف هذه الفنون بدقة حسب تسلسلها التاريخي والتعريف عنها بعناوين صغيرة تصاحب اي انتاج ادبي حيث يؤدى كل ذلك بالتالي الى وضع هالة من التقدير والاعجاب حول اسم الكاتب .

ويتساءل هنيغل متى سيتوقفون عن المديح الزائفة للاعمال الفنية ؟ وكذلك فان تساؤل وائل في هذا المجال قول بعدم الترحاب ان ان التقليد مازال قائما .

وبالفعل فقد تم تعجيد اسم بيتهوفن الى ابعد الحدود وكتبت مئات الكتب تخليدا لرسالته الداعية الى الاخوة والمساواة ، كما وان الملايين ازدحموا في قاعات الموسيقى او امام اجهزة الراديو والتسجيل للتمتع بسماع اعمال بيتهوفن الغنية وغيره من المؤلفين

ومن المؤسف ان هؤلاء الناس ينتمون الى نفس المجتمع الذى اسهم في اشعال الحرب تلو الحرب وبناء معسكرات الاعتقال وممارسة القهر السياسي المتواصل . لقد ارتكب هذا المجتمع بالرغم من مفاهيمه الانسانية الكثير من الممارسات اللااخلاقية باسم مفاهيم واهية للمعنصرية والاستعمار والوطنية بدلا من الاخذ بروح الرسالة الفكرية الساحقة للفنانين . ونجد انه لا الفن ولا الفنانين استفادوا من هذه المفاهيم الواهية وبالرغم من ذلك فقد تنبها هذا المجتمع بحيث انتشرت وتغلبت على مفهوم الاخوة والمساواة الذى نادى به الفكر والادب . ويبدو ان هذه الاتجاهات بحذر ذاتها تختلف كل الاختلاف عن اهداف بيتتهوفن في سمفونيته التاسعة .

ونتساءل هنا ماذا حدث لهذا المجتمع الذى خلد الفنانين باطلاق اسمائهم على الشوارع واقامة النصب التذكارية لهم وكتابة المقالات الطوال عنهم وعقد المؤتمرات بشأنهم وارضاء النفس بتقديرهم المبالغ فيه واضفاء هالة روحية عليهم ، انه لسلوك طبيعي من الناحية الظاهرية . اما من ناحية ثانية فاننا نجد بعضا من الجمهور يجلس بوقار لحضور الحفلات الموسيقية والاستماع الى السمفونية التاسعة وكلهم نشوة ، بينما نجد تلك المقطوعات نفسها على مكتب مدير الشرطة كدليل اتهام واداة رعب لصد اناس اخرين . ان هذا الارهاب الفكرى الثقافى الذى يتميز بالدكتاتورية إنما هو جزء من وسائل متعددة لنقهر والاضطهاد المدنى ويجب مراقبته ودراسته نتائجه من اجل سلامة التركيبة الاجتماعية للدولة . كما وان الشكوك التى اثارها احد الكتب الذى يختلف عن تلك الاساليب المستخدمة لدى السلطات الرسمية يعتبر بمثابة دليل اولي على الشك الذى يحيط بشخص ما يكون قادرا على استخدام فكره واعماله الادبية للمناداة برسالة علمية اكثر منها تأملية . واذا لم يعط لاي عمل ادبي التقدير الذى يستحقه ، فالولى به هذا العمل ان يلقى في سلة المهملات او ان يذهب الكاتب الى السجن . لذلك يفترض ان يكون للعمل الادبي دور بارز في تغيير المجتمع بدلا من كونه مجرد تسلية وهذر للوقت . والفنان الذى يستحق التكريم نجده في الواقع يواجه السخرية والادانة . وقد حدد افلاطون في جمهوريته الفاضلة وظائف وادوار الاديب الا انه ميز بين الاعمال الجيدة والمرفوضة اما حضارتنا الى تدعى انها سلبية ايدىولوجية افلاطون فلم تتوقف عن رفض او قبول الاعمال الادبية الا انها لم تتصرف وفقا لما كان يهدف اليه افلاطون .

والفكرة السائدة هي ان الدولة تميز بين نوعين من الاعمال الادبية ، المقبول منها والمرفوض . وهكذا ينظر الى الدولة على انها تمثل الامة وتمسك بزمام السلطة الدينية والمدنية مما يؤدى بالتالى الى اطلاق يد ها نحو الاحتلال والتوسع ثم الى اسطورة التفوق العملي التى تتعارض والنزعة التأملية (لقد سادت هذه الفكرة الرأى العام الاوروبى خلال حرب ١٩٦٧) .

وبينما تكون الاداب والفنون بمثابة طقوس وممارسات اجتماعية لدى امة من الامة
الا انها تساعدنا على تعزيز مهابتنا واضفاء روح التفوق على حضارتنا في الخارج . فنحن
لا نصدر السلاح والسلع التجارية والعلل والايد يولوجيات فقط بل اننا نصد رايضا انتاج
مجيد يعرف باسم * العلم والاداب الكلاسيكية العالية * .

ويمكننا في هذا المجال تضليل شعوب ذات مفاهيم مختلفة عن مفاهيمنا وانه بنقل
فكرة مؤداها اننا نستخدم الادب للتعبير عن رغبة اخوية بحثة في نشر رسالة السلام بين
جميع الامم . ان هذه الطريقة بالتعريف عن انفسنا ربما يكون لها تأثير كبير على كل من
يعتبر ان الاداب والفنون افرادية كانت ام جماعية ليست لها علاقة بالفنانين العظماء
او بالكتب والمدونات الدينية . وعلى اية حال فعند اختبار هذه الوسيلة من الناحية
العملية فانها تظهر عدم فائدها ويتم اكتشاف ذلك الاستغلال الثقافي واحتكار الاعمال
الادبية لاغراض معينة .

ان الاضطهاد الموجه ضد الاعمال الادبية الجماعية والافردية من قبل جميع افراد
المجتمع لهو مؤشراولي على ان الحضارة قد تحولت الى مفهوم يثير الرعب وهذا مايجرى
منذ وقت طويل في المجتمعات المبنية على الايد يالية . وبدلا من انه يقوم كل فرد بدور
الفنان ، فان الفنان نفسه يجمع كل الادوار في شخصية مستقلة تمثل مجموعات يمكن التعرف
عليها بسهولة . ان التمييز الافلاطوني بين المفكرين وبقية افراد المجتمع هو بمثابة
مؤشر على ان اليونانيين القدماء قد سبقونا بهذا المجال ، وعند ما نصل الى مرحلة
تعتبر فيها الفنون والاداب ظاهرة غريبة ومعزولة ويصبح الفنان شخصية من نوع خاص ،
عندها تكون الفنون والاداب في مرحلة من الجمود والركود .

واذا نظرنا الى الاعمال الادبية نجد ان القليل منها قد كتب بداعي توفير المتعة
والتسلية واثارة الرأي العام . ففي سمفونية بيتهوفن التاسعة ، نكتشف فنانا ملهما
يحاول نقل افكاره وزرعها في نفوس جماهير لم تطلع بعد على كل الجوانب الثقافية
وهي مسؤولة اذ ركها اذباء العصر الرومنسي .

اننا لا نتوقع ان يتحول اى مستمع ليصبح بتهوفن اخر ، ليس لمجرد انه لا يستطيع
تأليف سمفونية تاسعة كبيتهوفن بل لان استيعابه لمعاني السمفونية لم يتجاوز الانفعال
العاطفي فقط وهذا غير كاف لتغيير نمط حياته وبالتالي سلوك المجتمع من حوله . كما
اننا نتوقع في بعض الاحيان ان يكون الفنان متميزا او ثوريا ضمن حدود معينة ولكننا
لا نستطيع ان نتصور تحول الناس الى ثوريين لمجرد استماعهم الى الموسيقى او قراءة
الشعر . ان ما هله الذي عبر ببعض مقطوعاته عن انطوائية الفرد واغترابه قد ادرك تماما
هذه المشكلة .

وبالرغم من اهتمامي الكبير بموسيقى ما هلر إلا أنني لا أذكر فيها إذا كنت ناقشت
هذا الأمر مع وائل . ففي ذلك الوقت لم أكن أتصور أن دولة حديثة قامت على المبادئ
الأخلاقية والدينية يصل بها الأمر إلى القبول بفكرة الاغتيال السياسي المأجور وقتل المفكرين
خاصة ونحن في القرن العشرين . أنه ليس بالأمر الجديد أن يتصارع الناس بالسلاح ولكن
الغريب أن ينحرف هذا الصراع ويتحول إلى قتل المفكرين . أن هذا النوع من القتل قد
شوهوا وجه التاريخ بدماء الأبرياء عبر القرون وغالبا ما كان يدفعهم إلى ذلك مبادئ دينية
متعارضة . وعلى أي حال فإن حالة وائل زعيتري بينت جوانب غير عادية في عملية الاغتيال ، فلم
يكن يضر العداء لمبادئ أولئك الذين أمروا باغتياله والدليل على ذلك هو المقال الذي
أرسله إلى مجلة "اسبرسو" كما أننا نؤكد صحة مواقفه من خلال معرفتنا الطويلة به . لقد تولى
وائل مهمة المصالحة والتوفيق بين طرفين متنازعين بسبب سلسلة من الانحرافات والاطغايا
التاريخية .

ونجد أنه حتى يبين أولئك الناس الذين يعتقدون أنه من غير الممكن أن تتحول الجماعات
المضطهدة إلى العنف والقساوة ، فإن ما نادى به وائل يحل مشاكلهم ويحقق آمالهم وهو موقف
قل أن يكون له مثيل في التاريخ ، ولكن يبدو أني هذا الاتجاه الأخوي ليس أكثر من مجرد اتجاه
خيالي محض .

ونستنتج من ذلك أن المجتمع ليس خائفا من السفونية التاسعة بحد ذاتها ولكنه يحسب
الف حساب للرسالة التي يمكن لهذه السفونية أن تزرعها في قلوب الناس وبالتالي عقولهم . وفي
اللحظة التي يتطور فيها إحساس المستمع لهذه السفونية من مرحلة التأثير السطحي إلى اعتبارها
ظاهرة ضرورية في الحياة ، فإن هذا الإحساس يؤدي إلى تحريك ما يعتل بداخل الفرد
من كبت وقهر . وعندما سألتني وائل لماذا لا يمكن لهذه السفونية وما تحويه من معان خالدة
أن تفعل فعلها من التواحي الإصلاحية فقد عني بذلك أنه أصبح المتحمل الوحيد لعب رسالة
هذه السفونية وتحمله هذا العبء الكبير لمبادئ الحرية والأخاء ، إنما عرض نفسه لخطر
الاغتيال . ولكن الجهة التي وجهت القتل نحو هدفهم قد فعلت ذلك بدافع الخوف ، وعند
سيطرة مثل هذا الدافع على شخص ما فإن ذلك يؤدي إلى خلل في حساب الأخطار الناتجة
عن فعلته . وأن ما نادى به وائل زعيتري طيلة حياته وعجز عن الوصول إليه حققه تلقائيا باستشهاده .
أن التغيير الجذري في موقف المفكرين والرأي العام تجاه مدبري تلك المؤامرة كان كبيرا جدا .
وهكذا وبالرغم من كل السلبيات والاطغايا ، يبدو أن الثقافة ما زالت قادرة على تغيير
العالم مهما كلف الأمر من تضحيات .

والله اعلم

والله اعلم

